الترجمة الأدبية - أبعادها ومكوناتها

د. ياسمينة بن برينيس

أصبحت اليوم الإنجليزية والفرنسية لغتين عالميتين تدرس آدابهما في المدارس والجامعات العالمية، فإن اللغة العربية قد حققت هي الأخرى انتشارا كبيرا في المعمورة. فهذه اللغة التي تتمتع من حيث المبدأ بفرص طيبة لأن تكون لغة ذات مكانة إقليمية ودولية مرموقة هي الوعاء اللغوي لإحدى الحضارات العريقة الكبرى ألا وهي الحضارة الإسلامية، وهي لغة مهمة في مجالات الاقتصاد والسياسة يتحدث بها مئات الملايين من المسلمين في العالم، لغة لا غنى عن تعلمها لكل مهتم بتاريخ الأديان والتاريخ الحضاري والسياسي لمنطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بأكمله.

واللافت للنظر أن اللغة العربية قد أصبحت اليوم لغة رسمية في هيئة الأمم المتحدة إلى جانب الإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والإسبانية، ولعل هذه المكانة قد أتاحت لها الاحتكاك بلغات أخرى والتصدي للتقنيات الجديدة بكل عزم وثبات. ولا ننسى أن هذه اللغة تدرس في العديد من الجامعات العالمية التي خصصت لها ميزانية ضخمة من أجل التعمق في روحها والكشف عن أسرارها.

وتبقى الترجمة الأدبية من أهم وسائل النقل للآداب والثقافات، جسر ضروري لفهم " الاخر" وتحليل مكوناته الجمالية والنفسية والاجتماعية...

ويبدوان هذا النوع من الترجمة قد تحقق وانتشر عن طريق الكتابة والنشر والتوزيع، إذ كان، على امتداد التاريخ الثقافي للإنسانية، ومنذ وجدت آداب قومية مكتوبة بلغات مختلفة، هوالشكل الأبرز للعلاقات التي نشأت بين تلك الآداب. فمن خلالها كان كل شعب يتعرف على آداب الشعوب الأخرى، فيستمتع بها جماليا.

ويستقي منها معلومات وافرة حول الواقع الاجتماعي والحضاري لتلك الشعوب. وكان الدور الذي مارسته هذه الترجمة دورا تجديديا باستمرار. فالشعب الذي يستقبل آداب الشعوب الأخرى ويستوعبها يطلع على ما في تلك الآداب من أشكال وأساليب وتقنيات ومن مواضيع ومضامين وأفكار، فيتأثر إلى هذا الحد أوذلك.

صحيح ان العديد من النقاد قد ادعوا عبر التاريخ أنه من غير الممكن، إطلاقا وضع أفكار عمل أدبي ما وأحاسيسه وشكله وأسلوبه بلغة أخرى، دون ان يفقد هذا العمل الكثير من خصائصه، وصحيح أيضا أن الترجمة الأدبية "ليست نزهة اعتباطية في رحاب النصوص بل هي مكابدة شاقة مع المعاني والصيغ ومحك نزيه لقابلية اللغة المترجمة ومدى تسامحها وقدرتها على استيعاب لغة الغير بمحمولها الفكري والحضاري عامة".

ولكن الأهم من ذلك كله أن هذا النوع من الترجمة قد اعتنى به الناس في كل مكان وزمان وظل يمارس إلى حد الان في جميع انحاء المعمورة، مضيفا كل يوم تقاليد أدبية جديدة قادرة على التأثير في التجارب والأحاسيس والأساليب. فهولا يفتح افاقا رحبة أمام الآداب القومية وإنما يشكل أيضا وسيلة من وسائل التواصل لا غنى عنها، تساعد على تقوية وشائج التفاهم بين الشعوب.

تنتمي الإنجليزية والفرنسية إلى حضارات غربية مختلفة، أما اللغة العربية فهي تنتمي إلى حضارة مخالفة تماما هي الحضارة العربية الإسلامية.

فالخلفية التي تستند إليها اللغة العربية غير تلك التي تقوم عليها اللغة الإنجليزية أواللغة الفرنسية، والعكس صحيح أيضا، فوراء كل لغة من هذه اللغات الثلاثة تراث وفكر وعادات وتقاليد.... وكل لغة من هذه اللغات تنفرد بوسائل تعبيرية تتفاوت من حيث اقترابها أوابتعادها عن الواقع الملموس.

فللعربية مثلا سمة أساسية تميزها عن اللغات الأخرى " تلك أن الكلمة في أثناء الجملة تحمل معها ما يدل على صفتها الإعرابية، وما دام للكلمة مثل هذه السمة فلها من الحرية في التنقل في أثناء الجملة ما لم يكن لغيرها من الكلمات في العربية.

والقيمة النحوية للكلمة الأجنبية إنما

تحدد بموضعها المخصص لها في الجملة، فإذا زحزحت عن مكانتها جرت عن صفتها واتخذت لها صفة أخرى يحددها موضعها الجديد.

فالكلمة المرفوعة أي المضمومة الآخر هي المسند إليه أوالتابع للمسند إليه، وليس لها موضع محدد لها بحيث لا تفارقه، فهي تتصدر الجملة حينا وتتأخر حينا، ثم تتوسط أجزاء الجملة حينا آخر ولا تخرج عن كونها مسندا إليه مهما يتغير موضعها في الجملة ما دامت مرفوعة، والكلمات المنصوبة أي المفتوحة الآخر إنما هي من متعلقات الفعل، أومن متعلقات الجملة، وهي إذ كانت مفعولا مثلا فهي مفعول في موضعها اللغوي المألوف، وهي مفعول إذا تقدمت، وهي مفعول أيضا إذا توسطت أجزاء الجملة الأخرى...

هذه هي البنية الأساسية للكلام... وللغة العربية الحرية الواسعة في التقديم والتأخير. ولاسيما الجملة الإسمية التي لا ينتج التقديم والتأخير فيها صورا ممنوعة لغويا... وليس في اللغات الأوروبية مثل هذه الحرية : فالجملة فيها إسمية يتقدم فيها الفاعل عن الفعل ولا يتقدم الفعل فيها إلا شذوذا في حالات قليلة جدا.

وقد لا يختلف اثنان أن ترجمة نص أدبي أصعب بكثير من ترجمة نص علمي، لأن النص الأدبي ليس فكرة فحسب بل تجربة إنسانية تحمل هموم الأديب وتصوراته المختلفة للحياة.

وليس غريبا أن يشترط في المترجم الأدبي أن يكون قارئا ممتازا ومبدعا في عمله قادرا على نقل النص المستهدف بنوع من الأمانة : فما من شك أن الأثر الأدبي نص لغوي جميل يحقق تأثيره الجمالي والفكري من خلال شكله الفني والأسلوبي في المقام الأول لا من خلال موضوعه أومحتواه، فإذا كانت نوعية الترجمة غير جيدة فإن العمل الأدبي يفقد أدبيته وبالتالي تأثيره وقيمته.

يرى الدارسون أن ثمة أشكالا متعددة لاستقبال الآداب الأجنبية، لعل أبرزها وأهمها على الإطلاق : الترجمة الأدبية،فهي كفيلة بأن تضع هذا الاستقبال على أوسع قاعدة ممكنة، وذلك بإتاحتها لأكبر عدد من المتلقين فرصة الاطلاع على تلك الآداب.

وتشير الإحصاءات التي تصدر عن اليونسكوإلى أن عدد الترجمات الأدبية في ازدياد مطرد، وأنه من خلال هذا العدد الكبير يتحقق الجانب الأهم من العلاقات الأدبية الدولية.

ولا نظن أن هناك من يجادل أويشك في أهمية وضرورة استقبال الآداب الأجنبية في وطننا العربي وذلك لما لهذه الظاهرة من أثر على تطور أدبنا العربي وحياتنا الثقافية عموما ولكن إذ كانت هذه المسألة متفقا عليها، فإن هناك مسألة أخرى مرتبطة بها، كانت ومازالت موضع كثير من النقاش.

هذا الكلام يعني أن التأثير لابد أن يسبقه تلق... وهذا التلقي حلقة أساسية يكون فيها القارئ طرفا فاعلا وإيجابيا وهوشرط أساسي لأي تأثير ولعل هذا السبب هوالذي دفع بعض النقاد (من أمثال شفريل) إلى ربط الأبحاث التي تتناول النصوص الأدبية المترجمة بنظرية التلقي (أوتفسير فعل القراءة)، يقول شفريل :

"لابد أن نطرح هنا أسئلة عديدة غالبا ما تتكرر : ما هي النصوص المترجمة... كيف قدمت إلى القراء ؟ ما هوالانتشار عرفته على المستوى الكمي – وكم أعداد الطبعة الواحدة، وكم عدد الطبعات ؟ وعلى المستوى النوعي : وما هونوع الجمهور الذي تم التوجه إليه ؟... "

والمهم هوأن يعرف المرء كيف يستقبل العمل الأدبي نقديا خارج مجتمعه وثقافته الأصليين، وعند دراسة هذه المسألة فإنه يفاجأ بالفرق الكبير بين تلقي العمل الأدبي نقديا، أي شرحه وتفسيره داخل ثقافته الأصلية وبين تلقيه نقديا أي فهمه خارج تلك الثقافة.

ومن حق النقاد الأجانب أن يقرؤوا الأدب الأجنبي بصورة التي يرونها صحيحة أي أن يقرأوه انطلاقا من " أفق توقعات " مختلفة بالضرورة عن " أفق توقعات " النقاد الذين يقرأونه ويفسرونه ضمن أدبهم القومي الأصلي....

إن أول شرط ينبغي أن يتوفر في المترجم هوقدرته على فهم النص فهما لغويا، صحيحا، أي أن يكون قادرا على تفسير المفردات والعبارات الواردة فيه قصد نقلها بكل وضوح إلى اللغة الهدف. وهذا يعني أن تحليل العناصر اللغوية في النص عملية لابد منها من أجل اكتشاف أهم مميزات النص الأصلي وبعض أوجه الصعوبة التي يمكن أن يواجهها المترجم في مجال اختيار الألفاظ والتعابير والمصطلحات وأسلوب تناول النص.

ولعل أهم ما تطرحه اللغة الأدبية من مصاعب هوتعدد مستويات الفهم. فالمترجم الذي يفترض فيه أن يكون ذلك القارئ / النموذج لا يستطيع بأي حال من الأحوال تجاوز بعض الكلمات أوالتعابير

بحجة عدم فهمها. فهومرغم أمام هذه اللغة المتعددة المعاني على اختيار أقربها وأنسبها لمنطق متولد عن لغة معينة في فضاء وزمان معينين.

لم تعد الترجمة اليوم نقلا للرمز اللغوي وهوالدال وإنما هي نقل للمعنى أوالمدلول. فكل لغة تصور " تجربة أصحابها" الناطقين بها وهي تشمل، تبعا لذلك "تصورا للعالم" تناقلته الأجيال وتوارثته عبر الأزمنة المختلفة... وقد لا نشك في أن نقل مجال من المجالات في حضارة من الحضارات لا يكون سهلا هينا إذا لم يوجد له قرين أومثيل في حضارة اللغة المنقول إليها.

أما إذا تحدثنا عن القيم والمجردات والرموز فهنا يكون الاختلاف في تحديدها بين أفراد المجموعة البشرية الواحدة، بل بين أفراد العائلة الواحدة -فما بالك بنقلها من لغة إلى أخرى.

ولا ينبغي أن ننسى أن اللغة الأدبية سلسلة من الإيحاءات والإحالات والتخيلات، وبعبارة أخرى: أن جمالية النص الأدبي ليست في طابعه الخبري أي فيما يفيد فقط، بل في مادته اللغوية (ألفاظه وتراكيبه) وأيضا في أحاسيسه وروحه وسحره وتأثيره.

يقول جورج مونان:

"يسلم الناس اليوم بوجود ثقافات أوحضارات عميقة الاختلاف وتشكل عددا يساويها من رؤى العالم المختلفة " والسؤال هوهل يمكن لهذه العوالم العميقة الاختلاف أن تتفاهم، أوهل هي تتفاهم (أي تترجم إليها)...

من الواضح، إذن، أن هناك حواجز ثقافية تنتصب بين الشعوب، حتى بين تلك التي تنتمي إلى دائرة حضارية واحدة كشعوب القارة الأوروبية. ومن الطبيعي أن تكون تلك الحواجز أكبر وأضخم عندما يتعلق الأمر بأمتين تنتميان إلى دائرتين حضاريتين مختلفتين بعيدتين عن بعضهما البعض.

ومن الممكن أن تعلوتلك الحواجز وترتفع عندما يتوافر عامل ثالث وهواختلاف درجتي التطور الاقتصادي والاجتماعي.

إن البعد الثقافي يلعب دورا أساسيا لا يمكن إغفاله في عملية الترجمة. ولقد ناقش العديد من النقاد- وعلى رأسهم يوجين نيدا- أساليب ترجمة الكلمات والتعابير الثقافية وذلك من خلال تقسيمها إلى المجموعات التالية:

- كلمات ترتبط بالثقافة البيئية وتشمل: حياة النبات والحيوان والسهول والهضاب.
- كلمات ترتبط بالثقافة المادية وتشمل: الطعام والشراب والألبسة والمنازل ووسائل النقل.
- كلمات ترتبط بالثقافة الاجتماعية وهي متنوعة وعديدة منها ما يختص بالعمل وأوقات الفراغ والمناسبات المختلفة.
- كلمات ترتبط بالثقافة الإيديولوجية وتشمل المؤسسات والمفاهيم السياسية.

يجب ان يكون المترجم ملما إلماما كاملا بالأوجه الثقافية للنصوص التي يترجمها فضلا عن المميزات اللغوية والثقافية للغة التي يترجم إليها. فالترجمة ليست نقلا للمعنى فقط وإنما نقل للسياق الذي يقصر الكلمة على معنى واحد من معانيها الكثيرة، وتحديد ظلال المعاني الخاصة بها في الثقافة المنقول منها، كما يجب ان لا يتجاهل هذه الابعاد وهويتعامل مع نصوص اجنبية.

فثمة العديد من المفردات والمصطلحات الخاصة بعالم البحار الذي تفنن في وصفه الغربيون غير موجودة في اللغة العربية. وهناك العديد من أسماء النباتات والحيوانات المألوفة في الوطن العربي ليس لها مرادفات في اللغات الأوروبية (مثل الإنجليزية).

إن العديد من الكلمات في اللغة الواحدة ترتبط بروابط محلية وثقافية تميزها من حيث الدلالة والمعنى، فيجب التأكيد على أن اللغة هي قبل كل شيء وسيلة لنقل الأفكار، وعليه فإن الترجمة للمعنى وليس للكلمات وأن النصوص الأدبية تحتاج إلى ترجمة دلالية تأويلية لأنها تتضمن الاستعارات والمجازات والجناسات اللفظية. وفضلا عن ذلك يجب على المترجم مراعاة ضرورة الأثر الفني في العمل المترجم باعتبار أن هدف المترجم ينحصر أساسا في نقل هذا الأثر الفعال.

في الواقع إن ترجمة نص أدبي لا تعني مجرد الخوض في عملية لسانية بل هي أيضا البحث عن معادلات ثقافية قادرة على أداء المعنى.

ويعتبر الباحث يوجين نيدا " السياق الثقافي ذا أهمية قصوى في فهم معنى أية رسالة، لأن الكلمات لا تملك معاني لها، إلا إذا وردت في إطار ثقافي كلي... لذلك فعند تحديد تفسير رسالة يجب الانتباه إلى السياق الثقافي الأوسع لغرض الحصول على مفاتيح مهمة لتفسير معنى السياق.

كيف تترجم الأنماط والتراكيب البلاغية؟ وكيف تترجم الاستعارات

والرموز والتشابيه؟ وأين تكمن أوجه هذه الجمالية: في البنية المدركة المحسوسة أم في الفكرة ؟.

يقول الأستاذ عبده عبود:

"إن مسألة " التعادل" أساسية في الترجمة الأدبية، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالأبعاد الأسلوبية والجمالية للترجمة. فكل أدب قومي تقاليده الأسلوبية قد تختلف جذريا عن التقاليد الأسلوبية للآداب الأخرى... وتحقيق "التعادل" مطلب يجب أن تلتزم به الترجمات، مطلب مثالي أوشبه مثالي، إذا أصر المرء على تحقيقه بصورة كاملة يكون كمن يطالب بالحد الأقصى وينشد الكمال..."

الترجمة الأدبية عملية لغوية وثقافية وجمالية، يجد المترجم نفسه فيها يتأرجح بين النقل والإبداع. فهي لا تقتصر على نقل المعنى أوالأسلوب فحسب بل تتعدى ذلك إلى الناحية الجمالية الفنية، فترجمة رواية من لغة إلى أخرى على سبيل المثال ليس بالمهمة السهلة لأنها جنس "تستخدم فيها الأساليب الأدبية المختلفة التي يتوجب على المترجم أن يجد ما يعادلها أويقترب منها في لغة الهدف.

ففي مثل هذا الجنس ترد الكثير من التشابيه والاستعارات والكنايات والرموز وأنواع المجاز المختلفة التي يجب على المترجم أن يعرف كيف يتعامل معها.

ولقد قادت المعرفة إلى التعرف على ألوان جديدة من القصص والروايات، هيأت إمكانية تطوير هذا الفن واستخدام طرق وأساليب جديدة في التعبير. ولعل من أكثر الموجات والاتجاهات الأدبية الغربية تأثيرا في الفن الروائي العربي، في الخمسينات والستينات، موجة الأدب الوجودي وكتابات تيار الوعي والاتجاه الطبيعي الأمريكي.

ويبدوأن ظروف الوطن العربي كانت مهيأة خلال هذه الفترة لتقبل وانتشار مثل هذه الاتجاهات الأدبية. فلقد أصبحت أسماء كتاب مثل سارتر وكامي وجويس وولف وهمنغواي وفولكنر... معروفة جدا، ربما حتى للكثير من متوسطي الثقافة.

والجدير بالتنبيه أن عددا من الأدباء اللبنانيين ساهموا بشكل فعال في تعريف القراء العرب بالرواية الغربية، نذكر منهم على سبيل المثال أولئك الكتاب ذوي الاتجاه القومي الذين أسهموا في تشييد مجلة " الآداب " البيروتية الشهيرة من أمثال سهيل إدريس ومنير البعلبكي. فلقد قامت هذه الزمرة من المثقفين بانتقاء أروع الروايات العالمية وترجمتها إلى العربية بلغة ناصعة سلسة، وذلك بهدف التنويع ودفع الروائيين العرب إلى الخلق والإبداع.

ويعد منير البعلبكي واحدا من هذه الزمرة اللبنانية التي تحملت مسؤولية الترجمة الأمينة الخاضعة للتدقيق والتمحيص. فهوأول من قام بنقل " الشيخ والبحر " إلى العربية (١٩٥٤)، وهوأول من ترجم " أفول القمر " لشتنبيك إلى العربية أيضا.

كان يعمل باستمرار من أجل ترجمة عيون الأدب العالمي إلى لغتنا، باذلا كل ما في وسعه من أجل تقريبها، بلغته الجميلة السلسة، إلى الذهنية العربية.

والحق إن الترجمة الأدبية، في الوطن العربي، قد ساهمت كثيرا في تعريف الكتاب العرب بالأدباء العالميين وخاصة تلك المتعلقة بآداب البحر.

فقد وظف العديد من الكتاب العرب هذا الفضاء اللامتناهي للتعبير عن قيم ورموز ودلالات تخدم رؤاهم وأفكارهم.

تتميز التعابير الأدبية عن غيرها من التعابير، بقدرتها على وصف حالة أومفهوم أوشخص أوشيء، بشمولية ودقة أكثر مما هوممكن في اللغة العادية، وبطريقة جميلة تثير الاهتمام.

ومن المشاكل التي تواجه المترجمين في هذا المجال، القدرة على اختيار الطريقة المناسبة لترجمة الصور البلاغية والتعابير المجازية وغيرها.

وقد تكون هذه التعابير أحادية (أي كلمة واحدة) أومكونة من عدة ألفاظ، وقد تكون أمثالا أورموزا أوحكما.

وقد تفقد عند ترجمتها بعض عناصرها الأساسية إذ لا تحافظ الترجمة على نفس القوة والتأثير أوالانسجام كما هوالحال في النص الأصلي.

تعد ثنائية الشكل والمضمون (المبنى والمعنى) من الثنائيات الجوهرية في طبيعة اللغات. وتصبح هذه الثنائية في حالة الترجمة : الشكل والمضمون في النص الأصلي والشكل والمضمون في النص المترجم.

غير أن المترجم لا يتعامل إلا مع ثنائية واحدة، لأنه مطالب دائما بأن يكون " أمينا " في عمله. والمراد بالأمانة في هذا المضمار هونقل مضمون (معنى) في شكل (مبنى) اللغة التي ينقل إليها.

قائمة المراجع والمصادر

- جبرا (جبرا ابراهيم)، ينابيع الرؤيا، بيروت، المؤسسة الوطنية للنشر ١٩٧٢.
- الجزار (محمد فكري)، العنوان: سيميوطيقا الاتصال الادبي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨.
- الحكيم (أسعد مظفر الدين)، علم الترجمة النظري، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٩.
- حمد عناني، الترجمة الأدبية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية.
- الخطيب (محمد كمال) وعيد (عبد الرازق)، عالم حناميه الروائي، بيروت، دار الاداب ١٩٧٩.
- الديداوي (محمد)، الترجمة والتواصل، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ٢٠٠٠.
- ديداوي (محمد)، الترجمة بين النظرية والتطبيق، سوسة / تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٩.
- شكري (غالي)، معنى المأساة في الرواية العربية، بيروت، دار الافاق الجديدة، ١٩٨٠.
- عبود (عبده)، الادب المقارن: مشكلات وافاق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩.
- عبده عبود، هجرة النصوص، مشكلات وآفاق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.
- عناني (محمد)، الترجمة الادبية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية، ١٩٧٧.

عزيز الحكيم، ترجمة النص الأدبي من المساكنة إلى الانفلات،مجلة " ترجمان " ع٨

- محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار الثقافة.
- الماضي (شكري عزيز)، في نظرية الادب، بيروت، دار الحداثة للطبع والتوزيع، ١٩٨٦.
- مجموعة من الباحثين، الرواية العربية: واقع وافاق، بيروت، دار ابن رشد، ١٩٨١.
- يوجين نيدا " نحوعلم الترجمة "، ترجمة ماجد النجاربغداد، وزارة الإعلام.